

وظيفتنا إزاء الهجوم الثقافي

المناسبة: إقامة معرض للكتاب في حسينية الإمام الخميني (قده)

الزمان والمكان: 2 صفر 1420 هـ — ق طهران

الحضور: مسؤولو وزارة الثقافة والإرشاد وجمع من أصحاب دور النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

كان هذا اليوم بالنسبة لي يوماً طيباً وجميلاً كالعادة، حيث قضينا بعض الوقت بين الناشرين وبين الكتب.

والحقيقة أنني لم أكن راغباً بتحميل الإخوة كل هذه المشقة، حيث كان من الصعب عليهم القدوم إلى هنا ونشر هذا البساط من الكتب.

لقد جاءت هذه المبادرة بناءً على اقتراح تقدّم به الإخوة في وزارة الإرشاد، ورحبنا نحن بهذه الفكرة اللطيفة.

وعلى كل الأحوال نشكركم جميعاً أيها الإخوة حيث تحملتم هذه المشقة وشرقتم بالمجيء إلى هذا المكان.

شريحة الناشرين هي الحلقة الأساس في إشاعة الثقافة

أعتقد أنّ شريحة الناشرين — وفي أيّ قطاع كانت من قطاعات الطباعة والنشر — تدخل في عداد الشرائح الاجتماعية القيمة؛ لأنّ منتجي وناشريها هم الحلقة الأساسية في إشاعة الثقافة ووضعها بين يدي الناس.

وهنا لا ينبغي لأحد القول: أنّ الناشر يعنى بالكسب المادي، صحيح إنّ الناشر يعنى بالمرودود المالي، إذ قد يفكر المؤلف والمترجم أحياناً بهذا التفكير، غير أنّ هذا لا يقلل من قيمة عملهم؛ فحتى الطبيب الذي تشكرون له سعيه كثيراً قد يكتسب المال من مهنته في التطبيب، وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للمضمد، أو لأي شخص آخر يقدّم خدمة أو عوناً للآخرين ويحصل لقاء عمله على مردود مالي.

ومن الطبيعي أنّ اكتساب العائد المادي إزاء العمل لا يقلل من القيمة الذاتية للعمل. ولا شك في أنّ من يؤدّي هذا العمل بنية خالصة ولأهداف إلهية ونبيلة تكون لعمله قيمة أكبر وأجر مضاعف.

إنّ عملكم يا أعزائي تتخلله صعوبات من وجوه شتى، إذ إنه يماثل عمل الطبيب، فإذا حصلت منه أية غفلة في وصف الدواء، وحصل منكم أي إهمال وقدمتم للقارئ كتاباً

يضره، فقد لحقتم بأنفسكم ضرراً معنوياً بالغا، ولن يتسنى حينها لكم ولا لنا ولا لوزارة الإرشاد ولا للمعاونية المعنية بالقضية التوصل من عبء ووزر ما تقدّمونه للقارئ. هذه القضية التي أثّرتها مرّات عديدة منبثقة من منطق قوي واستدلال متين؛ وذلك لأن المرء لا يشكو ممّا يجري في عالم الطباعة والنشر لمجرد أحاسيس واهية أو تصورات عابرة، بل لأن الضرر الناجم عن ذلك يكون جسيماً على قدر أهمية عملية التأليف والنشر ونقل الثقافة.

أنواع العمل السلبي في تأليف الكتب

أنا شخصياً أقسم في ذهني العمل السلبي — أي الأمور السلبية في رأينا وضمن مقاييسنا — إلى ثلاث أنواع، هي:

النوع الأول: الكتب والمؤلفات التي تعرض آراء أو أفكار أو تصوّرات في أي مجال من المجالات، ونعتقد نحن بخطئها.

هذا فيما إذا كان صاحب ذلك الرأي يستهدف طرح رأيه فحسب ولا يرمي من وراء ذلك إلى أمر آخر.

ونحن نرى أنّ طرح مثل هذا الرأي المخالف المغلوط فيه، بين أوساط مجتمعنا مفيد، ونعتقد أنّ وجوده خير من عدمه وجوده؛ وذلك لأن الفكرة الخاطئة إذا لم تُطرح لا يتسنى للفكرة الصحيحة أن تتقدح.

وهذا النوع من العمل الثقافي عمل منطقي، ونحن نرغب في نشر مثل هذه الآراء التي يعتقد أصحابها بصحتها ونعتقد نحن بخطئها.

ولا بأس بأن تنتشر في مختلف المجالات، كما هو الحال في مجال الفقه مثلاً أو في مجال الفلسفة — وهو ما يدخل ضمن اختصاصنا، أعني الفلسفة الإسلامية — وسائر الأبحاث العلمية الأخرى، حيث يطرح البعض آراء يعتبرها البعض الآخر باطلة ويرد عليها؛ مما ينجم عن ذلك إنضاج الأفكار وصقل الأذهان وتقدّم الآراء والعلوم.

أما النوع الثاني: وهو عمل مغلوط طبعاً، فهو أن لا تقتصر الغاية على مجرد طرح آراء علمية أو نظريات فلسفية أو اجتماعية أو سياسية، وإنّما يأتي كجزء من إطار تآمري.

ونشر مثل هذه الكتب مضر.

من الطبيعي أنّ العدو حينما يريد الهجوم ثقافياً على بلد وشعب ونظام ما، فإنّه يوجّه أسلحته نحو بعض النقاط هناك.

ويبدو لي أنّ مثل هذه المحاولات موجودة اليوم في بلدنا؛ في عالم الكتاب، وفي عالم الصحافة، وفي عالم الفن.

ومن الطبيعي أننا حين نصف رأياً أو كلاماً أو فكرةً بعدم الصحة، وبأنه يدخل في إطار خطة تستهدف التخريب أو الإخلال بالأمن، قد لا يكون المنفذ له على وعي بطبيعة العمل الذي يمارسه.

وهذا لا يعني أنه شريك في تلك المؤامرة التخريبية، فقد لا يكون له أحياناً أيّ سهم فيها، لكن العدو يستغلّه .

وفي مثل هذه الحالة يجب على الإنسان الخير بمجرد أن يشعر أنّ كلامه ورأيه وعمله يُستغل ضمن إطار مؤامرة تخريبية تجري في هذا البلد، أن يتراجع فوراً عما كان عليه.

وهذا هو الموقف الأصولي المطلوب منه، وإلاّ فسيكون شريكاً فيها. هذا هو النوع الثاني من العمل الثقافي السلبي، وهو عمل خاطئ طبعاً. أما النوع الثالث: فهو العمل الثقافي الذي ينجم عنه تأثيرات فورية ولا يمكن تلافيه أو الرد عليه، من قبيل نشر الصور الخليعة بين أوساط الشباب على نحو واسع.

فكيف يمكن الرد على هذا العمل؟ وهل مثل هذا العمل مما يقبل الرد أساساً؟! أبداً، فمثل هذا العمل لا يمكن الردّ عليه، فحينما يكون للعمل الفني أو الكتابة أو الصورة تأثير أخلاقي مخرب، فليس بالإمكان الرد عليه، وإنما يجب منعه؛ ولهذا يجب أن لا يضيّع الهدف المطلوب من الرقابة وسط الضجّة الإعلامية المثارة ضدها.

وأرى أن من واجب النظام، ومن واجب وزارة الإرشاد، ومن واجبكم أنتم بصفتكم ناشرين أن لا تسمحوا ولا تقدّموا العون لنشر مثل هذه الأمور؛ لأن هذا العمل لا صلة له على الإطلاق بموضوع تأييدنا أو رفضنا للحريات.

من الطبيعي أننا نعارض بعض الحريات. وهل يشك أحد في أننا نرفض حرية الجنس، ونعارض حرية اقتراح الذنوب؟ ومثل هذا العمل الثقافي يسوق الناس نحو مثل هذه الممارسات.

ويوجد بين الكتب الصادرة حالياً كتب تجرف الشباب بأسلوب واضح، وضمن أعمال فنيّة، نحو المعصية.

ولولا خشية الترويج له لذكرت الكتاب الذي يسوق الشباب بأساليب فنيّة نحو المعصية.

وهذه ليست قضية فكرية حتى يقال: إنّ هذا الكتاب إذا صدر، يمكننا إصدار كتاب للرد عليه. لأن مثل هذه الممارسة لا يمكن الرد عليها!

نحن أوّل من رفع شعار الحريات

من الخطأ أن يتصوّر المرء أننا نُبدي حساسية فائقة في تعاملنا مع الصحافة والكتيب والمؤلّفات والإصدارات، ونتوجّس خيفة من التفكير الحرّ والنقاش الحرّ؛ أبداً، فنحن أوّل من رفع شعار هذه الحريات، ولا زلنا — والحمد لله — على موقفنا منها حتى يومنا هذا، غير أننا نعارض حرية المعاصي والحريات الهدّامة.

لا يجوز السماح بأن يأتي شباب البلد ويقتنون الكتب منكم، ثقةً منهم بنا وعلى اعتبار أنّ المتصدّين لزمّام الأمور أناس متديّنين، فتكون تلك الكتب سبباً لضلالهم أو فسادهم، أو أن يتخذها كأداة لتمرير مخططاته.

اعلموا يا أعزائي أنه يوجد اليوم، ولا أقصد خصوص اليوم، بل منذ مدّة، تيار وحركة ثقافية وسياسية متسارعة من قبل خصوم الجمهورية الإسلامية — الذين هم في الواقع خصوم للإسلام — تستهدف تخريب أذهان أبناء الشعب؛ بما تعنيه كلمة الذهن من فكر وأخلاق وصفات نفسية وروحية، وأنا أراقب هذه التحركات عن كثب.

أمّا الغاية الكامنة وراء توجيه أسلحتهم صوب هذه النقاط، فهي لعلمهم بأنّ نظام الجمهورية الإسلامية — الذي أصبح — والحمد لله — يمثّل رمزاً لمقاومة وصمود شعب بوجه الهيمنة الإستكبارية —

وهذا البلد وهذه الدولة وهذا الشعب بموقعه الجغرافي لا يمكن إلحاق الهزيمة به عبر أساليب القهر والقوّة. وهذه هي حقيقة الأمر.

يُشيعون في هذه الأيام أنّ أمريكا تريد الهجوم علينا، أو تريد أن تفعل كذا وكذا. ومن المحتمل طبعاً أنّ تقدّم دولة من باب التجبّر والطغيان على قرار غير صائب، ولكن من المؤكّد أنّ أي هجوم عسكري أو تحرك عسكري معادٍ سينتهي بضرر العدو، ولصالح الجمهورية الإسلامية.

بيد أنّ هذه الاحتمالات أصبحت ولحسن الحظ ضعيفة حالياً، وحتى في الوقت الذي كانت فيه هذه الاحتمالات قويّة في الأذهان، كنّا نوكّد حينها أنّ العدو إذا كان عاقلاً وأراد اتخاذ قرار صائب فإنه لن يتخذ مثل هذا القرار.

ومعنى هذا أنّ العمل العسكري، وأي إقدام يقوم على أساليب القوة والضغط لن يكون له أي تأثير على هذا البلد.

أما الشيء الذي يحظى بالأهمية لديهم فهو الشعب، والشعب كما يقول مولوي¹، وحقاً يقول: "يا أخي إنك كلّك فكر"، أي المقصود هو ذهن الشعب، وإيمانه، وعقله الذي يدفعه إلى الحضور في الساحة، ويكرّس وقت ذلك الشعب وقواه لخدمة حقيقة ما. وهذا هو ما يجري في الوقت الحاضر.

يجب توخي أقصى درجات الوعي والحذر

لقد صمد النظام الإسلامي بفضل الله وسيصمد، ولكن يجب توخي أقصى درجات الوعي.

يجب أن تتحلّى وزارة الإرشاد بالوعي من جهة، وخاصة في ما يتعلّق بهذه الجوانب الحساسة، ويجب أن تكونوا — أنتم الناشرون — على وعي أيضاً من جهة أخرى، وكذلك الأجهزة الحكومية الأخرى المعنية في الحكومة وفي المجلس وفي السلطة القضائية، من جهة ثالثة؛ فلا ينبغي السماح للعدو بأن يفعل ما يشاء.

إذا أردنا تصوّر هذه الخطوات؛ الواحدة تلو الأخرى، نراها أول ما تبتغي التأثير على الأذهان، ثم إزاحة الحواجز التي تحوّل دون التغلغل إلى أركان النظام؛ مثل مجلس صيانة الدستور الذي يتعرّض حالياً كما تلاحظون لهجمة شديدة؛ فموضوع الرقابة الإستصوابية وغيرها من الشؤون الأخرى التي بدأوا بإثارة الضجيج حولها من جديد، لا يوجد أي أساس لإثارة الضجيج حولها، ولا تهدف إلا إلى إضعاف هذا المجلس، وفسح المجال أمام العناصر المعادية للإسلام والمعادية للإمام والمعادية لنظام الجمهورية الإسلامية للتغلغل في آلية سنّ القوانين.

¹ مولوي العارف والشاعر الإيراني المعروف، وهو جلال الدين محمد البلخي نسبة إلى مدينة بلخ، ولِدَ عام 604 (هـ) وابوه (بهاء ولد) الخطيب والمدرس والعارف الذائع الصيت في بلخ، وفي ظل أبيه تربى مولوي الشاعر، ومع اشتداد تهديدات الجيش المغولي وهجماته على حدود إيران وهدم المدن وارتكاب المذابح واستبداد حكومة السلطان محمد خوارزم شاه، اضطر الكثير من رجال الثقافة في إيران إلى ترك وطنهم، ومن بين هؤلاء المهاجرين كان (بهاء ولد) والد مولوي الذي توجه لزيارة بيت الله الحرام والحجاز. وبعد أن أقامت أسرة مولوي في نيسابور وبغداد والشام والحجاز توجهت إلى مدينة لارندة في آسيا الوسطى ومنها إلى مدينة قونية حيث حل بها المقام إلى نهاية العمر. درس مولوي عند أبيه وتلاميذه البارزين والأساتذة المشهورين في ذلك العصر وبعد وفاة أبيه حل هو محله. ومن مؤلفات مولوي كتاب (المجالس السبعة) وكتاب (فيه ما فيه) وهما نتاج جلساته في الوعظ والتدريس وله كذلك ديوانه المعروف بالمتنوي وديوان شمس. وفي الخامس من جمادي الآخر من عام 672 للهجرة توفي مولوي في مدينة قونية عن 68 عاماً. ويعتبر مولوي شاعر القصة، ففي قالب قصصي إبان مولوي أفكاره وعقائده وصبّ أدق المعاني العرفانية في كؤوس قصص المتنوي فارتشف من رحيقها عشاق العرفان والحقيقة.

والحاجز الذي يقف دون ذلك هو مجلس صيانة الدستور، متصوِّرين بذلك أنهم يستطيعون عبر هذا الأسلوب أن يفعلوا بهذا المجلس ما استطاعوا أن يفعلوه ذات يوم بتلك اللجنة من علماء الطراز الأول، ولكنهم لن يستطيعون ولن يتأتَّى لهم ذلك. إذاً هذا هو الهدف، وهذه هي الخطوات اللاحقة، حيث يتصوَّر المختصُّون بالخطط السياسية والأمنية والحرب النفسية المعادون أنَّ هذه الخطوة إذا أثمرت، ستكون الخطوة اللاحقة هي التغلغل في المجلس.

وهو يعني التغلغل في الحكومة والنفوذ إلى أركان النظام. وهذا هو الأسلوب الذي يريدون الدخول من خلاله. إذاً الخطوة الأولى هي التغلغل إلى ذهن الشعب، وإيمان الشعب، وقلب الشعب، وعواطف الشعب، وحب الشعب عبر الأساليب الثقافية. ويتصوِّرون أنهم أحرزوا نجاحاً في مساعيهم هذه، إلا أنهم مخطئون؛ لأن أركان النظام راسخة متينة، والمسؤولون يقظون، وعليهم أن يكونوا يقظين وحذرين. وأؤكد الآن على وجه الخصوص – وبوجود السيد وزير الإرشاد – على وجوب الحذر والمراقبة وأن تكون مراقبتكم مضاعفة، وأن لا تخشوا الضجيج ولا الدعايات التي تتهمكم بمناهضة الحرية، فلو منحتم أوسع الحريات وحافظتم على مبادئكم، سيتهمونكم أيضاً بمناهضة الحرية! مثلما توجد حالياً دول في المنطقة لم تشهد وجود مجالس نيابية منتخبة على امتداد تاريخها، إلا أنهم لا يتهمونها بالدكتاتورية، في حين يوجَّهون هذه التهمة إلى بلدنا الذي شهد على امتداد عشرين سنة من عمر ثورته، عشرين إنتخابات شعبية حرة.

نحن لا نرتجي من العدو سوى هذا، ومن غير المعقول أن يغيّر المرء منهجه العقلي والمنطقي الصحيح لأجل أقاويل الأعداء. وعلى هذا يجب أن لا تعيروهم أدنى اهتمام.

القوى السلطوية والهيمنة الثقافية

تحاول القوى السلطوية اليوم بسط سلطاتها الثقافية في كل أرجاء العالم، وبالنحو الذي يناسب كل مكان، ومن أمثلة ذلك الأطباق اللاقطة [الدش]؛ حيث نلاحظ أنهم أعادوا إثارة هذا الموضوع من جديد.

وليس من الصحيح الدعوة إلى السماح باستخدام هذه الأطباق؛ لأن تقنية الأقمار الصناعية ستتطور خلال خمس سنوات، وسيصبح بالإمكان الالتقاط من الأقمار

الصناعية مباشرة دون حاجة إلى الأطباق، فهذا منطق غير صائب، ويجب على من يطرح هذا الرأي أن يفكر للعثور على أسلوب جديد لمواجهته .

هذا المنطق يجب أن يقود إلى هذه النتيجة.

من الطبيعي أنّ العدو عاكف على تطوير هذه التقنية، وهذا ما يوجب عليكم في المقابل البحث عن أساليب وتدابير كفيلة للحيلولة دون استشراف ظاهرة الأطباق اللاقطة. أمّا المنطق الداعي إلى إزالة الموانع من أمام العدو بذريعة أنّ العدو يواصل تقدمه، فهو منطق غير سليم، إذ إنّ هذا الحاجز ما زال يؤدّي دوره كحاجز، وهذا المنطق شبيه بمنطق من يرى العدو موشكاً على اقتحام حدودنا، وأننا لا نستطيع الصمود أمامه لأكثر من ساعتين، فيدعو إلى التراجع أمامه! كلا، بل يجب في مثل هذه الحالة الصمود والمقاومة على مدى هاتين الساعتين لعل النصر يكون فيهما.

إنّ قانون منع استخدام الأطباق اللاقطة، الذي صادق عليه مجلس الشورى الإسلامي قبل بضع سنوات، كان صحيحاً تماماً، واستطعتم بواسطته أن تؤخروا التقدم المعادي عدة سنوات على أقل تقدير، وستستطيعون ذلك في المستقبل أيضاً إن شاء الله.

يجب عليكم في موازاة هذا العمل، السعي لتوفير أساليب صيانة وتحصين الشباب والأذهان والقلوب، فإذا استطاع العدو أن يتغلغل يوماً رغماً عنكم، تكونون أنتم قد أوجدتم الحصانة مسبقاً.

هكذا ينبغي مواجهة الهجوم المعادي.

لقد استطعنا بمثل هذه المعنويات، وبمثل هذا الصمود أن نؤقف على مدى عشرين سنة زحف الاستكبار العالمي وأمريكا، ولا زلنا قادرين على ذلك؛ فالشعب الإيراني قوي، وهذا الثبات نابع من صلابة الإيمان ومصدره الدين والإسلام.

وأيّما وجد تكون لديه قدرة على دحر العدو، وهذا ما يوجب علينا تقوية الوازع الديني، وأن نقوّي عنصر الإيمان في قلوب الشباب، ونحث على اجتناب الفساد.

هذا هو العمل الصحيح، وهذا هو الأسلوب الصحيح.

وتقع عليكم أنتم أيها الناشرون الأعزّاء مسؤولية إزاء هذه الأمور.

وأنتم تمثلون طبعاً عدداً قليلاً من مجموع الناشرين في البلد، وأنها لفرصة سعيدة أن تجتمعوا هنا ويُنّاح لنا لقاءكم، وأغلبكم طبعاً أو كلكم ممن يقرّون بصحة هذا الرأي، وقد يوجد بينكم من لا يرى صحته، وهو حرّ طبعاً في ما يراه.

يجب على كل من يضطلع بمسؤولية معينة في هذا البلد أن يسير إلى الأمام بعزم وشجاعة وثبات في ضوء الإجماع الإسلامي، وفي ضوء ما يستشعره من تكليف، وهذا واجب الجميع.

أرجو أن نكون وإياكم، وكذلك الحكومة والمجلس والسلطة القضائية على معرفة
بواجباتنا، وأن لا نمرّ مرور الكرام على هذه القضية، ذات التأثير البالغ على الأذهان
وعلى إيمان الناس.

فهذه القضية في غاية الأهمية، وهذا المقطع الزمني حساس جداً، فلا ينبغي تجاوزه
بسهولة.

وهذه القضية تحظى بأهمية أكبر من مكافحة الأدوية الفاسدة والتي انقضت أجلها،
ومن مكافحة الأطباء المحتالين. ولهذه القضية أهمية أساسية في كل المجتمعات.

لقد قضينا معكم ساعتين ولا يسعني إلا أن أتقدّم بالشكر لكم ولإخواننا في وزارة
الإرشاد ولبقية من نظّموا هذا اللقاء، والأخوات الكريمات اللواتي شرفن بالقدوم إلى هذا
المكان، ولكم جميعاً أيّها الأخوة الكرام.

وأسأل الله لكم التوفيق والساداد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته